دور عقيدة أم البراهين للسنوسي في نشر و ترسيم المذهب الأشعري بالجزائر وسبل تفعليها اليوم

د. خليفي الشيخ
– جامعة تلمسان –

مقدمة :

عاش الإمام محمد بن يوسف السنوسي في ظل الدولة الزيانية بالجزائر في القرن التاسع للهجرة . وقد قامت الدولة الزيانية في أول أمرها على مبادئ الحركة الموحدية التي قام بها المهدي بن تومرت ، إذ تعتبر فرعا من فروع دولة الموحدين التي بسطت سلطانها على كامل المغرب والأندلس .

وقد قامت هذه الدولة في المجال العقدي والثقافي الشرعي على مبدأين أساسين دعا إليهما ابن تومرت ، ونشطت الدولة في إشاعتهما وجعلهما قواما للفكر والثقافة بالمغرب ، وذانك المبدآن هما : التنزيه في التصور العقدي على أساس من التأويل على الطريقة الأشعرية ، والتأصيل في الفكر الشرعي على أساس اتخاذ الأصول النصية المصدر المباشر للأحكام [1].

وفي هذا المناخ العقدي والثقافي الذي ساد المغرب في القرن التاسع عاش الإمام السنوسي ، وفيه كانت مساهمته الثرية في العلوم الدينية المختلفة ، ولعل أبرز علم لمع فيه السنوسي وبه اشتهر ، هو علم العقائد ، فقد كانت أكثر مؤلفات السنوسي في هذا العلم و ذلك لأن جلّ جهده قام على أساس عقدي ، فوجّه همّه إلى تركيز هذا الأساس و تدعيمه فكانت أكثر مؤلفاته فيه ، وعلى مذهب الإمام الأشعري ، كما أن واحدا من تلك المؤلفات هو الذي كان له الدور الأكبر في إشاعة ونشر الأشعرية بين أهل المغرب

[1]– ينظر تفصيل هذين المبدأين عبد المجيد النجار – المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1403هـ / 1983م : 205 وما بعدها ، و 283 و ما بعدها

عموما والمغرب الأوسط خصوصا – الجزائر – ونعني بهذا المؤلف " أم البراهين " . فكيف ساهمت هذه العقيدة في نشر المذهب الأشعرية بهذه البلاد ؟ وما منزلة هذا العقيدة عند أهلها من سكان المغرب الإسلامي ؟ وكيف تلقوها ؟ وما هي الأسباب التي وقفت وراء تراجع الاهتمام بها في الوقت المعاصر ؟ وما هي سبل تفعليها اليوم لكي تؤدي دورها الذي رسمه لها كاتبها الإمام السنوسي ؟

1/ مراحل الفكر العقدي قبل عصر السنوسي :

استقرّ الإسلام في المغرب الأوسط – ومنها الجزائر – على صفاء مذهبي قوامه في الاعتقاد وحدة سنّية مبنية على منهج السلف المؤصل على النقل فهما و استدلالا ثم متطورة بعد القرن الخامس الهجري إلى منهج الأشاعرة الذي دعّم النقل بالعقل في تقريره للعقيدة و تحرير مسائلها ، و قوامه في الفقه وحدة مذهبية على منهج مالك في تقرير الشريعة [1] .

إلاّ أنّه مع هذه الحالة فإنّ الفكر العقدي بالمغرب الإسلامي عموما ، لم يعرف ذلك الازدهار الذي عرفه بالمشرق ؛ ذلك لأنّ العوامل التي أدّت إلى نضجه و ذيوعه هناك لم تتوفّر أمثالها في الدّيار المغربية ، ذلك أنّ هذه المنطقة لم تكن على غرار أختها في العالم الإسلامي ، و لعلّ من أهمّ الأسباب في ذلك ، أنّ هذه الجهة لم تشهد من الفرق الكثيرة المتعارضة التي يؤدّي احتكاكها ببعضها إلى حركة من الجدل ، و الصّراع الفكري الذي يمتدّ إلى مواضع العقيدة ، كما أنّ هذه المنطقة لم تشهد التحدّيات الفكرية الموجّهة إلى العقيدة كتلك التي شهدتها المشرق ، و لهذا السبب فإنّ الفكر العقدي ، بهذه المنطقة ظل دوما في موقع التبعية و التقليد لما ينشأ في المشرق من الاتجاهات و المذاهب ، و ما يحدث فيها من القضايا و التطورات [2] .

كما أنّ العلم الذي كان يهتم بالعقيدة ، إيرادا للاستدلالات ، وردّا للشّبه و تناولا للمتشابه ، و تأويلا لظواهر بعض الآيات ، كان يلقى معارضة من بعض أهل المغرب ، و هو ما يبدو في النكير الذي

[1]– عبد المجيد عمر النجار – فقه الإصلاح بين التربية والسياسة (ابن العربي و ابن تومرت نموذجا) ، ط1 ، مطبعة التوفيق ، المغرب ، 1997م : ص 09

[2]– عبد المجيد عمر النجار – فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1992م : ص 41

كان يواجهه من يتعاطى هذا العلم من قبل عموم العلماء مع تحريض أمير المسلمين عليه ، و من ذلك ما ذكره " المراكشي" بدقة بقوله : " و دان أهل ذلك الزّمان بتكفير كلّ من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ؛ و قرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السّلف له ، و هجرهم من ظهر عليه شيء منه ، و أنّه بدعة في الدّين ، و ربّما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام و أهله ، فكان يكتب عنه في كلّ وقت إلى البلاد بالتّشديد في نبذ الخوض في شيء منه وتوعّد من وجد عنده شيء من كتبه " [1] .

و في نطاق هذا الوضع العام يمكن تمييز في حياة الفكر العقدي في المغرب الإسلامي إلى قرن السنوسي التلمساني ، ثلاثة أطوار متميّزة [2] ، هي التالية :

أ – طور الفكر السّلفي : و هو ذلك الطّور الذي كان فيه أهل المغرب الإسلامي على طريقة السّلف في التّصور العقدي ، تلك الطّريقة التي تقوم على الإيمان بظاهر النّصوص و اجتناب الخوض في المتشابه ، و قد ظلّت هذه الطّريقة السّلفية متّبعة عند أهل المغرب على سبيل الغلبة إلى أواخر القرن الرّابع .

ب – طور الأشعرية المتقدّمة : فمنذ أواخر القرن الرّابع بدأ الأثر الأشعري يظهر بالمغرب و ينتشر شيئا فشيئا على يد تلاميذ " الباقلاّني " [3]، و لما بسطت الدّولة الموحدية سلطانها على المغرب في منتصف القرن السّادس أصبح بها المذهب الأشعري هو السّائد ، و قد ظلّ هذا بالمغرب إلى منتصف القرن السّابع ، جاريا على ما عرف بطريقة المتقدّمين[4] .

---

[1] – عبد الواحد المراكشي – المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تقديم : محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي ، ط 1 ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، 1949م : ص 172 - 173

[2]– عبد المجيد النجار – فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب : ص 41 - 45

[3] – هو أبوبكر محمد بن الطّيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني المالكي الأصولي المتكلّم ، اختلف في مولده ينسب إلى البصرة سكن بغداد . ولد بعد النصف الثني من القرن الرابع سمع الحديث من أبي بكر بن مالك القطيعي و علم النّظر عن أبي عبد الله بن مجاهد الطّائي صاحب الأشعري توفي سنة 372 هـ . انظر ، عبد الحي بن العماد – شذرات الذّهب في أخبار من ذهب ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، د ط ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، دت : ج3 ص 169 .

[4]– وهي الطّريقة التي جرى عليها الباقلاّني في كتابه "الإنصاف" ومن بعده الإمام الجويني في كتابيه "الشّامل" و "الإرشاد" و التي تقوم على الاستدلال بالنص المؤزر بالاستدلال العقلي، في غير خلط بالمسائل الفلسفية و المنطقيّة، إذ الرّد لم يكن موجّها إلى الفلاسفة بل كان

ج – طور الأشعرية المتأخرة [1] : و قد بدأ تأثيرها يظهر منذ أواسط القرن السابع والثامن والتاسع والعاشر الهجري ، إلاّ أنّنا بعد ذلك نلمح انحدارا واضحا و جمودا بيّنا لحق بالفكر العقدي .

و الواقع أنّ الفكر العقدي خلال القرن التاسع و العاشر قد شهد بعض الفتور و غلب عليه التقليد و الاكتفاء بإعادة العرض و اجترار الماضي ، فكان جلّ إنتاج هذه المرحلة شرحا أو تلخيصا أو نقدا لمؤلفات السابقين في غالب الأمر و يذكر أنّ هذا الحكم إنّما هو سائغ في حدود ما تكشف عنه المعلومات المتاحة ، و ذلك لوجود بعض المناطق المجهولة من تراثنا العقلي و منها هذه الفترة ، و لعل أبرز سمات هذه المرحلة [2] :

1 – سيادة أسلوب الحواشي و التقارير الملحقة بالمتون القديمة و شروحها على المؤلفات الكلامية .

2 – استقرار الأشعرية في أغلب مناطق العالم الإسلامي و منها المغرب الأوسط حيث الدولة الزيانية و الجزائر .

3 – زيادة التقارب بين علم الكلام والتصوف ، حتى صار متكلموا هذه الفترة لا يجدون بأسا – أحيانا – في أن يلحقوا لمؤلفاتهم في الكلام فصولا صوفية .

و الخلاصة أنّ ما آل إليه الفكر العقدي خلال هذه الفترة ، من الجنوح إلى الشروح والتلخيصات قد كان في بعض جوانبه استجابة لضرورات واقعية ملحة تمثلت في شيوع التقليد والاكتفاء به ، و الإعراض عن النظر ، و قد تنبه السنوسي إلى هذه الحال فقال في تحليل هذه الطريقة "ولقد ألف علماء السنة ..تأليف مختصرة ، اقتصروا فيها على سرد العقائد مجردة عن الأدلة ، لتحفظها العامة و من قصر عقله عن النظر ، ليرتقوا من معرفتها تقليدا إلى البحث عن أدلتها ، وما ذاك إلا أنّهم رأوا أكثر العامة لا يحسن

موجّها في الأكثر إلى أهل الأديان و إلى الفرق الإسلامية الأخرى . انظر ، عبد المجيد النّجار – فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب : ص 44 . و حسن محمد الشافعي – المدخل إلى دراسة علم الكلام ، ط2 ، مكتبة وهبة ، القاهرة، مصر ، 1991م : ص 86 - 89

[1] – تطلق الأشعرية المتأخرة على تلك المرحلة التي أصبح فيها علماء الأشاعرة يخاطبون في ردودهم من بين من يخاطبون طائفة الفلاسفة مستعملين في خطابهم المنطق الأرسطي والمقدمات الفلسفية ، ولقد وجدت هذه الطّريقة سبيلها إلى المغرب. عبد المجيد النجار – فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب : ص 45 وما بعدها .

[1] – حسين الشافعي – المدخل إلى دراسة علم الكلام : ص 122

العقائد و لو بالتقليد ، فأرادوا من نصيحتهم أن ينقلوها من مرتبة يخشى عليهم فيها أن يكونوا على اعتقاد مجمع فيه على الكفر إلى مرتبة مختلف فيها ، ولعلّها تكون سلما إلى المعرفة "[1] .

2 / أم البراهين ودورها في نشر الأشعرية بالجزائر و المغرب الإسلامي :

لئن لقيت مؤلفات السنوسي عموما القبول و الرواج لدى المغاربة لما كان لتلاميذته بها من عناية في تدريسها و نشرها بين النّاس ، فإن كتاب أم البراهين واحدا من تلك المؤلفات الذي كان له الدور الأكبر في إشاعة و نشر الأشعرية بين أهل الجزائر و المغرب الإسلامي عموما ، فقد شاع ذكرها بين النّاس عامتهم و علمائهم ، و جرت بها الألسنة حفظا و شرحا ، و صارت على مرّ الأيام الخلاصة للتصور العقدي الذي تجري به الأذهان ويلقّن للنّاس ، و لذلك فإنّنا نعتبر انتشار هذه العقيدة و تأثيرها المظهر المهم من مظاهر القوة فيها ، و أم البراهين أو العقيدة الصغرى ، هي رسالة وجيزة لا تتجاوز الصفحتين أو الثلاث ، و سميت كذلك لجمعها كل البراهين التي يحتاجها المسلم – في نظر السنوسي – في البرهنة على وجود الله وحجية الإسلام ، و قد اقتصر فيها على سرد العقائد بأدلتها ، لتحفضها العامة و من قصر عقله عن النظر ، وما ذاك إلاّ لأنّ السنوسي رأى أن أكثر العامة لا تحسن العقائد ولو بالتقليد .

كما كان يعتقد السنوسي أنّ من اقتصر عليها فإنّها تكفيه عن سائر العقائد و الدواوين الكبار ومن هنا جاء اهتمام الدّارسين و العلماء بها بعد ذلك شرحا و تدريسا ، يرون في تعليمها المسلمين قربى إلى الله ، لأنّها تحفظ العقيدة من أن يدركها شوب أو نقص .

و قد حرّرت هذه العقيدة تحريرا بليغا ، كما أنّ وجازة أم البراهين و بلاغتها ، وسلامتها من مخالفة ظاهرة للآراء الأشعرية ، ضمن لها الذيوع ، و الانتشار ، و جلب لها العناية المتزايدة فأقبل الناس عليها يتعلمونها و يحفظونها ، و يدرّسونها ، و يشرحونها و يعلقون ، و يحشون ، و يقرّرون ، و تهيأت الجوامع و المدارس العتيقة لتدريسها ، فأخذت إجازات العلماء تعطى على قراءتها ، و انّصب

[2] – محمد بن يوسف السنوسي– عمدة أهل التوفيق والتسديد – تحقيق عبد الفتاح بركة ، ط1 ، دار القلم ، الكويت ، 1982م: ص59

اهتمام المفكرين عليها اهتماما لم نعرف له– فيما نعلم – مثيلا في كل تاريخ الفكر الإسلامي . و استمر ذلك إلى أيامنا هذه حيث ماتزال بعض الجوامع في مداشر المغرب العربي تقبل على تدريسها[1].

والذي يزيد في تأكيد قيمة هذه العقيدة ، هو الكم الهائل من الشروح والحواشي ، والأنضام عليها ، ولقد قام يوسف احنانة بوضع لائحة ضمت مجوعة لا يستهان بها مما توافر لديه من عناوين وأسماء هذه الشروح والحواشي والأنضام ، فقد بلغ عدد شروح أم البراهين أزيد تسعة عشر شرحا ، أما الحواشي وبعض المختصرات على هذه العقيدة فزادت عن خمسة عشرة حاشية ، كما أن الأهمية التي حازتها عقيدة أم البراهين دفعت مجموهة من المفكرين إلى نظمها ، وتحويل مضامينها إلى رجز يسهل حفظه وتناوله من طرف المتعلمي فظهرت أنظام زادت عن ستة أنظام ، و أيا ما كان الأمر فإن هذه الاهتمامات الوفيرة بأم البراهين تكون قد ساهمت إلى حد بعيد في تكريس المذهب الأشعري بهذه المنطقة من العالم الإسلامي والحفاظ على استمراريته . [2].

3/ القضايا العقدية في أم البراهين :

أشار الإمام السنوسي في مقدمة كتابه وشرحه على أم البراهين إلى أهمية هذه العقيدة فوصفها أنها عقيدة صغيرة الجرم ، كثيرة العلم ، محتوية على جميع عقائد التوحيد ، تم تأييدها بالبراهين القاطعة ، القريبة لكل من له نظر سديد ، ثم أنّه ختمها بشيء يرى أنه لم يسمح به أحد غيره من المتقدمين ولا من المتأخرين ، وهو أنه قام بشرح كلمتي الشهادة التي لا غنى للمكلف عن معرفتها ، وأنه بإتقانها يسلم العبد من آفات الخلود في غضب الله تعالى ويرتقي بمعرفتها بفضل من الله إلى أعلى عليين ، فذكر معناها أولا ، ثم بيّن وجه دخول جميع عقائد الإيمان فيها ، وأنها في نظره عقيدة لا يعدل عنها بعد الاطلاع عليها ، والاحتياج إلى ما فيها إلا من هو من المحرومين إذ أنها باعتقاده – وفيما يعلم – لا نظير لها وهي بحسبه

[1]- يوسف احنانة – تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ط2 ، مشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربيبة 1428هـ / 2007م : ص211

[2]- المرجع نفسه : ص 244- 249

وبفضل الله تفوق بمحاسنها على كبار الدواوين والكتب [1]. وقد اشتملت على مقدمة على أربعة أقسام وخاتمة اندرجت فيها القضايا والمسائل العقدية على النحو التالي :

المقدمة :

القسم الأول : و قد جاء فيه بيان الحكم العقلي ، و أقسامه ، و بيان معى التقليد وحكمه .

أما القسم الثاني فقد تكلم فيه عن الواجب ، و المستحيل ، والجائز في حقه تعالى ، كما تناول فيه البرهان على وجوب الوجود ، والبرهان وجوب القدم ، والبرهان وجوب البقاء ، والبرهان على وجوب المخالفة للحوادث ، والبرهان على وجوب قيامه تعالى بنفسه ، والبرهان على وجوب الوحدانية ، والبرهان وجوب صفات المعاني لله تعالى ، والبرهان على وجوب السمع ، والبرهان الجائز في حقه تعالى .

وأما القسم الثالث فقد تحدث فيه عن الرسالة والرسل ، والبرهان على وجوب صدق الرسل ، والبرهان على وجوب أمانتهم ، ودليل جواز الأعراض البشرية في حقهم .

وأما القسم الثالث فقد شرح فيه كلمة التوحيد ، وقام بضبطها وإعرابها وبيان معناها و حكمها ، وكيفية ذكرها ، و الفوائد المترتبة على ذكرها .

أما الخاتمة فتناول فيها دعوات صالحة لله تعالى .

نلاحظ من خلال هذه القائمة للقضايا المطروحة في كتاب أم البراهين أن القسم الأول قد استغرق القضايا المنطقية والعقلية ، فيما استغرق القسم الثاني مباحث عقدية خالصة في الإلهيات ، أما القسم الثالث فقد تناول فيه النبوات ، أما القسم الأخير فقد أفرده لشرح كلمة التوحيد ، و يظهر في هذه

[1] – السنوسي – شرح أم البراهين ، تحقيق مصطفى الغماري ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989م : 19

الجزئية الأخيرة تأثير كتاب بغية السالك إلى أشرف المسالك للساحلي[1] بشكل واضح و جلي ، فإنّ ما نجده من تشابه بين بعض محتوياته و محتويات البغية في عدة مواضع يمكن اعتباره من قبيل الاستفادة المباشرة و الاقتباس الحرفي ، غير أنّ ما يلاحظ في هذا الاقتباس أنّ الإمام السنوسي لم يشر إلى المصدر الذي أخذ منه هذا الشرح ، و البيان في ممارسة الذكر ، و نرى أنّ مبرر ذلك يرجع في أن " شرح أم البراهين "كتاب مختصر في العقيدة موجه للعامة من النّاس كان يعتقد السنوسي أن من اقتصر عليها فإنّها تكفيه عن سائر العقائد والدواوين الكبار [2]ولهذا جرّده الإمام عن كثير من الأدلة الشرعية و نصوص العلماء السابقين .

4 / العوامل المساعدة على هيمنة أم البراهين على بلاد المغرب الإسلامي :

إنّ من أهمّ ما ساعد على هيمنة عقيدة السنوسي على الجزائر و بلاد المغرب الإسلامي عموما ، وخاصة في سلك التعليم جملة ما تمتاز به هذه العقيدة منها :

البساطة و الوضوح ، فهذه العقيدة واضحة مشرقة في عمومها ، و لعلّ السّبب في ذلك يرجع إلى إحساس السنوسي بضرورة تبسيط المعلومات الشّرعية و العقائدية منها على وجه الخصوص ، و جعلها في متناول طلاّب العلم ، بعد أن كلّت العزائم ، و خمدت النّفوس ، و ندر من يجشم نفسه عناء مدارسة المصادر ، و من هنا جاء عمل السنوسي الفذّ ، في تبسيط الثقافة الدّينية مع النّفور الشّديد من التعقيد .

---

[1]– أبو عبد الله الساحلي المالقي الأندلسي ولد سنة 678هـ أحد علماء الأندلس ينتمي إلى الطريق الساحلية ورث مشيختها عن والده مجتهد في العبادة و العلم من مؤلفاته الشهيرة : " بغية السالك " توفي سنة 754هـ . انظر ، مقدمة محقق كتاب بغية السالك في أشرف المسالك للساحلي ، عبد الرحيم العلمي ، دط ، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1424هـ / 2003م : ص 17 و ما بعدها .

[2]– السنوسي – شرح أم البراهين : 19

كما تمتاز عقيدته أيضا بالإيجاز و التّركيز ، فيما عرف بالمتن ، ليسهل حفظه ، واستظهاره، ثمّ العودة إلى المتن بالشّرح الذي يقرّب إلى الذّهن غوامض المعاني ، و يحّل رموز المتون ، و يفكّ معضلات الأساليب ، بعيدا عن الإطناب المملّ و الاستطراد المخلّ ، الذي لا تحصل من وراءه الغاية التّربوية و الدّينية المنشودة .

كما تغلب على عقيدة السنوسي ظاهرة التّكرار ، فنجد الموضوع الواحد في بعض الأحيان يتكرّر أكثر من مرّة فمثلا في شرح العقيدة الكبرى نجد آراءه في الوحدانية و الصّفات تتكرّر في كتابه شرح العقيدة الوسطى ثم تتكرر في كتابه شرح أم البراهين و غير ذلك .و للتّكرار عند السنوسي مصلحة تربوية ، فالتكرار عنده يوضّح الفهم و يوجب للنّفس الطّمأنينة و عدم قبولها التشكيك في الحقّ بوجه من الوجوه .

كما أنّ من أهم ما ساعد على هيمنة عقيدة السنوسي على سلك التعليم بالغرب الإسلامي بالأساس أنّه لم يكن يهدف من هذه الآراء التي تناولها في كتاباته العقدية ، أن يقرّرها للنّاس في مؤلّفات يتداولونها كما تتداول سائر كتب العلم ، بل كان هدفه أن يتحوّل محتواها العقائدي إلى واقع في حياة الناس ، تصورا و سلوكا ، و لهذا الغرض اضطلع بالدعوة إليها والعمل على إنفاذها في حياة أهل عصره .

كما ساهم تلاميذته من بعده على تدريسها و نشرها بين الناس من ذلك مثلا أن الملالي [1] وهو من أقرب تلاميذ السنوسي قد وضع شرحا وافيا لعقيدة أم البراهين .

[1]– أبو عبد الله محمد بن عمر بن إبراهيم بن علي الملاّلي التلمساني ، هذا و إنّ إثبات كلمة " الملالي " في نسبه ، تدلّ على نسبته إلى إحدى قرى الشرق الجزائري ، و هي قرية " مَلاَّلَة " الواقعة قرب مدينة بجاية ، و عنها يقول صاحب تاج العروس : " مَلاَّلَة كجبانة قرب بجاية على ساحل البحر ، و منها العلامة محمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر بن علي الملالي ممن أخذ على الشيخ سيدي محمد بن يوسف بن عمر السنوسي " . و لكننا لا نعلم شيئا عن ظروف انتقال هذه العائلة من الشرق إلى الغرب ، بل لا نكاد نعرف عن هذه الأسرة إلا ما أثبته الإمام الملالي نفسه عن أبيه الذي كان أحد تلامذة الإمام السنوسي ، وقد ختم عليه كتابه " أم البراهين" عدة مرات ، و طلب منه أن يختصرها له فلبى طلبه و كتب له عقيدة عرفت فيما بعد ب" صغرى الصغرى" .ينظر ، محمد مرتضي الحسيني الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق مصطفى حجازي ، دط ، إصدارات المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب ، الكويت ، (1419هـ-1998م) : ج03 ص 425

و ا لملالي — المواهب القدسية في المناقب السنوسية ، مخطوط ، المكتبة الوطنية بتونس . تحت رقم : 22668 ، ورقة: 105

5 / أسباب تراجع الاهتمام بأم البراهين :

يرجع سبب تراجع الاهتمام بكتب السنوسي العقدية وبخاصة أم البراهين في وقتنا المعاصر إلى عدة أسباب منها:

تصنيف الإمام السنوسي من قبل بعض الباحثين المعاصرين على أنّه من المتصوفة الدّراويش الذين عطّلوا مسيرة الأمة و تقدمها فكريا و سياسيا بما أنتجوه من كتب و بما وجهوا الأمة إليه من علم ، لا لشيء سوى أنّه عاش في القرن التاسع الهجري عصر التصوف السلبي و الكرامات المزعومة .يقول " عبد المجيد النّجار في هذا : " بعد الازدهار و النجاعة و الحيوية التي شهدها علم الكلام في الطّور السابق يبدأ في الهبوط شيئا فشيئا إلى حالة من الجمود والجدب ، فإنّنا ابتداء من مؤلّفات " محمد بن يوسف السنوسي "[صاحب] (العقيدة الكبرى ، و أم البراهين ، و العقيدة الوسطى) ، نصادف شروحا لما في كتب الأقدمين من القضايا خالية من الجدة و من روح المواجهة الحقيقية ، و متّصفة بالاجترار "[1] ، وقد علّل هذه الحالة ، بكون القرون الوسطى خفت فيها غلواء الشبه والتحدّيات المواجهة للعقيدة الإسلامية عمّا كانت عليه في القرون الأولى [2] .

و الواقع أنّه سبق " النّجار " في هذا الحكم القاسي على السنوسي كل من " لويس غادريه" و" قنواتي " في كتابهما " فلسفة الفكر الدّيني بين الإسلام و المسيحية " حينما وسماه بكل علامات الجفاف و الاستقرار على التحجر عند حديثهم عن الأشعرية في فترة جمودها ، و أنّه أقرب إلى التّقليد منه إلى النّظر بحكم نشأته في عهد " الجمود على التقليد "حيث لم يبق أثر على الخصوم [3].

غير أن الملاحظة السّطحية تكشف أنّ الذين تناولوا أعمال السنوسي لم يتخطوا في دراستهم المقتضبة ،كتابه الواحد أو ما يزيد عنه قليلا ، و لهذا ، فما قالوه في هذا الباب ، لا يفي بالمطلوب ويدعو

---

[2] – عبد المجيد النّجار – مباحث في منهجية الفكر الإسلامي ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1992م : ص 177

[3] – المرجع نفسه : ص 119

[4] – لويس غارديه و ج . قنواتي– فلسفة الفكر الدّيني بين الإسلام والمسيحية ، ط2 ، دار العلم للملايين ، بيروت ،لبنان ، 1978م : ج1 ص 140

إلى الحذر ، ولقد شعر بهذا التّصور قبلنا بعض المستشرقين الذين ترجموا له أو نقلوا له شيئا من مؤلفاته إلى لغاتهم أمثال : " بروسلار " و " لوسياني " [1] .

6 / سبل تفعيل عقيدة أم البراهين اليوم :

كان محمد بن يوسف السنوسي رجلا عالما في العقيدة ، و الشّريعة ، و التصوف ، و صدق منه العزم على أن يجعل علمه هذا ، أساسا لحياة النّاس ، في مظاهرها المختلفة فكريا و اجتماعيا و أخلاقيا ، و في سبيل تحقيق ذلك نهض بدعوته الإصلاحية معتمدا في ذلك خط تعليمي تربوي . غير أنّ الحياة السياسية و الاجتماعية و الفكرية بالمغرب الأوسط كانت معقدة و لها أثرها على هذه التجربة .

لقد كان السنوسي يهدف إلى أن تكون آراؤه العقائدية واقعا تجري عليه حياة الناس الفكرية و السلوكية ، فتتصلح بها تصوراتهم العقدية و تتحول من تصورات قائمة على التقليد إلى تصورات تقوم على البرهان و النظر العقلى ، كما تنصلح مظاهر سلوكهم بالعمل .

و لا يخفى أنّ تهيئة الفكرة في سياق التبشير بها لتصبح واقعا في حياة الناس تصورا أو سلوكا يحتاج إلى مراعاة قبولها من قبل النّاس و تلاؤمها مع واقعهم الفكري و السّلوكي ، و هو عنصر أساسي في تحديد ما تؤول إليه الأفكار و الآراء من البقاء و الديمومة ، أو الاندثار و الفناء ، ذلك لأنّ لواقع الحياة و ما يكتنفها من الظروف و الملابسات منطق آخر يغاير منطق الذهن المجرد ، و إهمال هذا المنطق و التغافل عنه كثيرا ما يكون سبب الفشل للآراء الإصلاحية كما أنّ مراعات الأخذ به يكون سببا لنجاحه .

إنّ حياة النّاس المتقلبة في تلمسان الزيانية ، أوحت للسنوسي بتحديد مواقفه إزاء قضايا فكرية كالتقليد و عواقبه في تقويم الإيمان ، و التوحيد و علاقته بالعقل ، و الذكر و التصوف و التحذير من إنزلاقاتهما ، ففي ما يتعلق بالتقليد فإنّه صرّح بمحاربته نظرا إلى عواقبه الوخيمة على النّاس و الدين ، و لهذا

[1] – جمال الدين بوقلي حسن – الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985م : ص 07

طالب باستعمال العقل في كل شيء ، و في أصول العقيدة بوجه خاص حيث ألحّ على تأسيس الإيمان على البرهان باعتباره أمر دعا إليه القرآن والسنة ، و أبسط سور البرهان الأدلة الإجمالية .

إلاّ أنّنا نؤكد أنّ واقع المسلمين اليوم لناتج عن إبعاد العقل و الشريعة ، كان لهما خطرهما و تأثيرهما على تجربة السنوسي العقدية إلى حدّ ما .

ومن المقترحات التي نراها مهمة لتفعيل عقيدة أم البراهين للسنوسي اليوم تظهر في ما يلي :

ضرورة اعادة شرح متن أم البراهين على ضوء المناهج الجديدة سواء منها العلمية أو الفلسفية ، و تبعا لتغير عقليات الأجيال المعاصرة فإذا كانت العقيدة ثابتة لا تتغير عبر الزمن، فإن كتب علم العقيدة من طبيعتها أنها تنمو و تتطور بما يقتضيه النمو و التطور من إمكانية التغير ؛ ذلك أن الشروح تخضع لما تقتضيه أحوال الناس و أوضاعهم في الفهم و الاقتناع ، فرب شرح أفهم في عصر ، ورب دليل أقنع فيه، و لكن في عصر آخر لا يكون بهما إفهام أو إقناع ، و هو ما يحصل بسبب التغير الذي يحدث في عقليات الناس و ثقافاتهم عبر الزمن؛ و لذلك فإنه يكون من الوارد على كتب علم العقيدة بل من الضروري في حقها أن تتغير فيها بعض الشروح بما يضمن لحقائق العقيدة الفهم و الإقناع [1] .

الأمر الأخر الذي يساعد على تفعيل عقيدة أم البراهين اليوم لدى الأجيال الجزائرية المعاصرة يتمثل في ادراج نصوص من عقيدة السنوسي بشرحها المبسط في البرامج التعليمية خاصة في مادتي الفلسفة والعلوم الإسلامية ، وكذا في البرامج البحثية الجامعية .

ومهما يكن من أمر فإنّ التجربة العقدية الأشعرية السنوسية مهمة للغاية ، و لازال لها وجود و بقاء رغم عامل الزمن و الظروف التي أحاطت بها ، وهذا برغم أنّ المذهب السنوسي لم تكن له شهرة واسعة كشهرة غيره . رغم أنّه اشتهر بين علماء زمانه بالصّلاح و الزهد ، لكون الكتب و المصنفات التي خلّفها كانت تظهر على أنّه متكلم بالدرجة الأولى أكثر منه أنّه صوفي .

---

[1] – عبد المجيد عمر النجار – الإيمان وأثره في الحياة ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيرت ، لبنان ، 1997م : 12-13

قائمة المصادر و المراجع :

- أبو عبد الله الساحلي المالقي الأندلسي – بغية السالك في أشرف المسالك للساحلي ،تحقيق عبد الرحيم العلمي ، دط ، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1424هـ / 2003م .
- أبو عبد الله محمد بن عمر بن إبراهيم بن علي ا لملالي – المواهب القدسية في المناقب السنوسية ، مخطوط ، المكتبة الوطنية بتونس . تحت رقم : 22668 .
- جمال الدين بوقلي حسن – الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985م .
- حسن محمد الشافعي – المدخل إلى دراسة علم الكلام ، ط2 ، مكتبة وهبة ، القاهرة، مصر ، 1991م .
- عبد المجيد النجار – المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1403هـ / 1983م .
- عبد المجيد عمر النجار – فقه الإصلاح بين التربية والسياسة (ابن العربي و ابن تومرت نموذجا) ، ط1 ، مطبعة التوفيق ، المغرب ، 1997م .
- عبد المجيد عمر النجار – فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1992م

- عبد المجيد عمر النجار – الإيمان وأثره في الحياة ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيرت ، لبنان ، 1997م
- عبد المجيد النّجار – مباحث في منهجية الفكر الإسلامي ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت . لبنان ، 1992م
- عبد الواحد المراكشي – المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تقديم : محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي ، ط 1 ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، 1949م .
- عبد الحي بن العماد – شذرات الذّهب في أخبار من ذهب ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، د ط ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، دت : ج3 .
- محمد بن يوسف السنوسي– عمدة أهل التوفيق والتسديد – تحقيق عبد الفتاح بركة ، ط1 ، دار القلم ، الكويت ، 1982م .
- محمد بن يوسف السنوسي – شرح أم البراهين ، تحقيق مصطفى الغماري ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989م .
- محمد مرتضي الحسيني الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق مصطفى حجازي ، دط ، إصدارات المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب ، الكويت ، (1419هـ-1998م) : ج03
- لويس غارديه و ج . قنواتي– فلسفة الفكر الدّيني بين الإسلام والمسيحية ، ط2 ، دار العلم للملايين ، بيروت ،لبنان ، 1978م .
- يوسف احنانة – تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ط2 ، مشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغريبية 1428هـ / 2007م .